د. خيرالدين دعيش

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي
جامعة سطيف 2

مقياس نظرية الأدب للسنة الثانية ليسانس

<u>المحاضرة</u> : نظرية التعبير (3) .

تيلور كولريدج (1772-1834):

رفض كولريدج فلسفة كانت في الخيال التي كانت تتمثل في أن الخيال هو مجرّد وسيلة لجمع الجزئيات الحسية المتفرقة، إذ كان يرى أن الخيال: "ليس تذكّر شيء أحسسناه من قبل وقد تجرّد من قيود الزمان والمكان ومن كل علاقاته وارتباطاته، لا، ولا وهو جمع بين أجزاء أحسّت من قبل التأليف شيء لا يحس، ولكنه في الواقع خلق جديد، إنه خلق صورة لم توجد وما كان لها أن توجد بفضل الحواس وحدها أو العقل وحده، وإنما هو صورة تأتي في ساعة تسجيل الحواس والوجدان والعقل كلا فيالفنان..." فالعقل عند كولريدج لا يستطيع وحده خلق الصورة ولا الادراك وحده قادر على فعل ذلك، ولم يلغ كولريدج أثر العقل أو أثر الادراك، -حسبه- هو القوة الكونية العامة والضرورية للاقناع والايمان وهو مصدر وأساس تفوق الحقيقة على المشاعر وهو يحمل الحقيقة في ذاتها.

أما الادراك فهو ملكة أو قدرة ترتب وتنظم الحقائق العامة وتعكس الانطباعات والمشاعر، هاتان القوتان (العقل والادراك) تتحدان في الشعر أو في الفن بواسطة الخيال الذي يدمج ويصهر الخاص والعام، المادي والمثالي، الفكرة والصورة، المضمون والشكل، فالخيال يذيب، يشتت، يوقد، يجدد من

أجل إعادة الخلق للوصول إلى الوحدة والمثل (النموذج) فالشعر هو النشاط العام للخيال.

ويرى كولريدج أن الخيال نوعان: "إنني أعتبر الخيال إذن إما أوليا أو ثانويا، فالخيال الأولي هو في رأيي القوة الحيوية والأولية التي تجعل الادراك الإنساني ممكنا"، وهو تكرار في العقل المتناهي لعملية الخلق الخالدة في الأنا المطلق (خيال العواطف الذي يبتكر الأشياء والصور) أما الخيال الثانوي فهو في عرفي صدى للخيال الأولي، غير أنه يوجد مع الإرادة الواعية (ليس فيه تكرار بل فيه وعي أي ليس ميكانيكيا) وهو يشبه الخيال الأولي في نوع الوظيفة التي يؤديها، ولكنه يختلف عنه في الدرجة وفي طريقة نشاطه، إنه يذيب ويلاشي ويحطم لكي يخلق من جديد، وحينما لا تتسنى له هذه العملية فإنه على الأقل يسعى إلى إيجاد الوحدة وإلى تحويل الواقع إلى مثالي، إنه في جوهره حيوي، بينما الموضوعات التي يعمل بها (باعتبارها موضوعات) في جوهرها ثابتة لا حياة فيها"، إذن ، الخيال الأولي هو الذي يتمتع به كل الناس، أما الخيال الثانوي فهو الخيال الشعري أو الخيال الذي يتمتع به الشعراء فقط، والخيال الأولي قوة تمكن الناس من إدراك الأشياء، أي هو طريق الوصول إلى المعرفة أو الحقيقة، ذلك أن حقيقة الأشياء لا تكمن في الإحساس بها أو بوجودها وإنما بالعلاقة بينهما وبين الذات، هذه العلاقة التي يلعب الخيال دورا أساسيا في الكشف عنها، أما الخيال الثانوي فإنه صدى للخيال الأولي، لكنه لا يهتم بجزئيات الشيء المدرك، أو بالعلاقة بين الذات المُدرِكة والموضوع المدرَك، لأن موضوع الخيال الثانوي يجب أن يكون غائبا، أي أن الشاعر يعطينا صورة للشيء كما تراءت له أو كما تخيلها في شكل من الأشكال، لذلك فإن الخيال الشعري يذيب ويلاشي ويحطم لكي يخلق لنا صورة جديدة تحل محل موجودات الطبيعة، فأجزاؤها المادية هي عناصر موجودة بالفعل في الواقع لكنها في مجموعها متخيلة، أي من صنع خيال الشاعر الذي استطاع أن يجمع الأجزاء ويصهرها ويوحد فيما بينها في صورة، كما ان الخيال يتيح للذات بأن تلتحم تماما مع الموضوع وينتج عن ذلك شكل جديد له صفات الكائن العضوي الحي، ومن هنا جاءت فكرة الشكل العضوي Organic مقابلة للشكل الآلي الذي قالت به نظرية المحاكاة.

كما يميز كولريدج بين الخيال والوهم، يقول إحسان عباس: "فالخيال هو القوة الموحدة المركبة أما الوهم فهو القوة على الحشد والجمع" (فن الشعر ص150).

إن الوهم عند كولريدج يجمع بين جزئيات باردة منفصلة الواحدة منها عن الأخرى جمعا تعسفيا أي ان الصور التي يجمعها ثابتة محدودة تبقى خين تجمعه كما كانت وهي مفرقة وليس بينها علاقة طبيعية أو خلقية، كما أن الوهم يتعلق بما ليس حقيقيا أما الخيال فلا يهمه إن كان الشيء حقيقيا أو غير حقيقي، وفي الوهم يحاول الانسان أن يتغلّب على عدم الرضى بالواقع الذي يكون فيه، أما الخيال فليس فيه الدافع لأنه تستوي عنده الحقيقة وعدمها، بل تستوي عنده الرغبة في الشيء وعدمها.